صلصلة

حياة محمود محددة المعالم.. لا تتعدى حدود القرية.. مع اشراقة شمس الصباح يضع حقيبته "السمسونيت" على عجلته "النصر" ليبدأ رحلته اليومية.. رنين الجرس الذي يتعمد قرعه عند بيوت بعينها؛ تشرئب له رقاب "أعيان القرية" من فرجات البيوت, فيما تتحسس أيديهم الذقون الخشنة أو الشعر الطويل.. العجلة "النصر" التي اشتراها حديثا, بديلا جيدا عن الحمار "الحصاوي" اللئيم, الذي كان يعانده ويعتكف الصمت, فلا يشعر أحد بجولات محمود الصباحية, مما كان يضطره لإحداث بعض الجلبة بنفسه؛ من نحنحات وسعال وخلافه, كما أنها لا تأكل ولا تشرب ولا تمرض ولا تطالبه بشيء..

وعلى عجلته, وبحقيبته, يطوف القرية شرقا وغربا, يحلق لكل من أرسل في طلبه, أو يتعهده محمود بموعد ثابت, أو أغراه رنين الجرس بالحلاقة.. بعدها يلتزم محمود دكانه الصغير, يطلبه فيه شباب القرية, وصغار الفلاحين.. سيناريو حياتي ثابت لا يحيد قيد أنملة؛ إلا في يوم واحد.. يوم الثلاثاء من كل أسبوع, حيث سوق القرية الكبير, العامر بالخلق وخيرات الله, وفيه لا يعير محمود أحدا التفاتا حتى ينفض السوق, ويذهب عُماره إلى حال سبيلهم..

الآن كرسيه الخيزران منصوب على أعتاب السوق, منهمكا يحلق على عجل. مقصه يصلصل على أشده, وهو يكاد يلهث؛ ليلاحق التجمهر من حوله. فلاحين وباعة وخلق كثير, كل ينتظر دوره. يبدو بينهم بمقصه وحركة يديه وجسده الضئيل مثل مايسترو لجوقة موسيقية أفرادها من الضخام العتاة, ذوي الشوارب المفتولة المعقوفة كمخالب الصقر.. جميعهم يثرثر, ولا أحد يستمع كما ينبغي, ينظرون لبراعة يدي محمود وخفته, ولا يتحركون سوى للجلوس على الكرسي الخيزران كلما خلى وانتهى محمود من رأس وذقن أحدهم..

محمود ينز عرقا, ورغما عن ذلك فمه لا يهمد هو الآخر عن الكلام, فهو كثير الكلام بطبعه, يلوك الكلام مثلما تلوك النساء "اللبان".. القاصي والداني, والشاردة والواردة في القرية الممتدة يعلمها.. يصفه "عمدة القرية" بأنه وكالة أنباء متنقلة, استبدلت الميكروفون بمقص.. وعندما لا يجد محمود ما يقال, أو ينتقل من حكاية لأخرى, ترتفع عقيرته بكلمته الشهيرة:

- "وحدوه"

فتتمتم الشفاه استعدادا لفقرة محمود التالية:

- "لا اله إلا الله"

ولا يقوم الزبون من تحت يديه, إلا وقد ابتلت شحمة أذنه من رزاز فمه المنهمر كالمطر, ويشرع محمود في ضرب رقبته اللامعة من أثر الموسي بفوطته البيضاء, في شيء لا يخلو من شدة؛ ليخلصه من بقايا الشعر العالق عليها, ويدلك وجهه الممتقع الحليق بالكلونيا "الخمس خمسات" بيديه الناعمتين كأيدي النساء.. وقد صارت رقبة الزبون أكثر طولا, ويقول له محمود وهو يتلوى من حوله كأفعى ناعمة ملساء, وبلهجته التي تشبه صلصلة المقص, وغنج النساء:

- "نعيما"

فيجيب الزبون:

- "نعم الله عليك"

ثم يدس قروشه في جيب محمود, الذي يتظاهر بدوره بالتمنع, وقد صار صوته خافتا ناعما, كما صوت عذراء تُطلب للزواج:

- "وصل والله.. خلي علينا المرة دي.."

ولا يكلف نفسه قط مشقة النظر في جيبه.. وما الفائدة؟!.. والمعرفة لن تقدم ولن تؤخر, فالزبون لن يدفع أكثر مما دفع, ولو انشقت الأرض وابتلعت محمود

بفوطته, ومقصه, وكرسيه الخيزران, ولو أرغى وأزبد وملأ الدنيا بكاءً وعويلا, كما أنه في قرارة نفسه لن يخسره بأي حال..

وما أن يقوم "الزبون" ويجلس آخر, حتى يبدأ محمود في تعداد مساوئ اللاحق للحاضر, فيجعل يشب على أطراف أصابعه من فرط الانفعال, وينعقد حاجباه, وتتورد وجنتاه, ويغنج صوته ويرق, والمقص في حركته التي لا تهمد, وصلصلة صوته الصاخب, موسيقى تصويرية تصاحبه في أكاذيبه وافتراءاته على خلق الله, يجاري بحذق وبراعة الحديث اللاهث على لسان صاحبه.. وما أن ينتهي حتى ترتفع عقيرته مجددا:

- "وحدوه"..